

الخطاب السجالي في أدب محمود محمد شاكر

عاصم محمد أمين بني عامر

تمهيد:

إن الخطاب السجالي لبنة أساسية في جدار الأدب العربي، ويعد محمود محمد شاكر من أهم أعلامه في العصر الحديث، فالسجال في خطابه بنية مهيمنة، ركنت إلى طرائق أسهمت في إخراج خطاب ناضج، أهمه تصفية فكر المنافس، ولجم صوته، رشحه سعة الاطلاع وعظيم القراءة، والصبر على تماحك العقول وتناقضها، وتمكن شاكر من أدواته على مستوى التلقي والبت، لأجل هذا كله ولغيره تصدت هذه الدراسة إلى اكتناه بنية الخطاب السجالي عند محمود محمد شاكر من أجل الوصول إلى سر عظمة ذلك النتاج.

بيد أن أهم صعوبة هذه الدراسة، هي وفرة ما قدم شاكر إلى المكتبة العربية، وصعوبة تحديد المنتج السجالي، مما ليس بسجالي في ظل تراكمات الكم المعرفي الذي أنتجه، وعظيم ما دار حول خطابه من شد وجذب، على يدي مجاليه ولاحقيه من أدباء عصره ونقاده، وكان لندرة الدراسات النقدية التي تتعلق بمساجلاته، بل انعدامها، أثر حقيقي في مبلغ الصعوبة التي واجهت الدراسة، فحين شرعت في كتابة هذا البحث كنت مجرداً من العون النقدي في مجال سجلات شاكر، إلا أنه كان لدراسة محمود إبراهيم الرضواني، شيخ العربية وحامل لوائها، التي صدرت سنة ١٩٩٥م، ودراسة عمر حسن القيام، محمود محمد شاكر: الرجل والمنهج، سنة ١٩٩٦م، ودراسة صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، سنة ١٩٩٦م، ودراسة عايدة الشريف، محمود محمد شاكر: قصة قلم، سنة ١٩٩٧م، ودراسة إبراهيم الكوفحي، محمود محمد شاكر: سيرته الأدبية ومنهجه النقدي، سنة ٢٠٠٠م فضل سابق على التأسيس لهذا البحث.

تطلبت معاينة سجلات شاكر منهجاً محايداً تنظم بها مباحث الدراسة، فكان المنهج التحليلي الذي هدف إلى سبر أغوار ظاهرة الخطاب السجالي عنده، وتحليلها إلى عناصرها الأولية.

وهكذا جاءت الدراسة في مباحث عدة، عنون أولها بـ: "المساجلة: المصطلح والمفهوم"، ووقف على مفهوم السجال لغة واصطلاحاً، تبع هذا المبحث إضامته جلّت البيئة الثقافية المؤسسة لسجلات شاكر، ووقفت على دورها في تهيئة الأجواء الباعثة للسجال، تمثلت هذه البيئة في أسرته التي تسنمها والده محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر، وأخوه أحمد شاكر زعيم المحدثين في زمانه، بما علماه من إصرار على الحق، والذب عن حمى هذه الأمة بلسان حاد، وبيئة الجامعة التي أفرغت حسب رأيه من معناها فتركها بدافع من مساجلاته الاعتبارية مع طه حسين، كل ذلك وغيره اقتضى تخصيص جزئية تقف على بواعث مساجلاته التي جاءت دفاعاً عن أمته وثقافتها العربية والإسلامية، ودفاعاً عن لغة القرآن، أتبع بجزئية أخرى استقصت ضروب الخطاب السجالي عند شاكر، فوقفت على أنواعه التي انسربت في خطاب "مقالي" ركنه المقالة بشتى صنوفها الأدبية والاجتماعية والسياسية والدينية، وخطاب سجالي "كتابي" عمدته عدد من الكتب التي ألّفت للرد على بعض خصومه في قضايا عديدة طرحت، ومسائل فتقت، وختمت بسجال "مقدماتي" نسبة إلى مقدمات بعض الكتب التي ألّفت رداً على قضايا أثرت من قبل بعض النقاد، مثال ذلك مقدمة طبقات فحول الشعراء التي جاءت رداً على طروحات طه حسين في قضية الانتحال في الشعر الجاهلي. كما أردفت الدراسة بمبحث آخر وسم بـ: "طرائق الخطاب السجالي عند شاكر"، ووقف على طرائق تلقي الخطاب السجالي عنده، وتبين أنها تمثلت بـ: الفهم والتفسير والتحليل والتذكر والاستجابة. أتبع بمبحث مكافئ ووقف على "طرائق البث في الخطاب السجالي عند شاكر"، الذي أتبع آليات عديدة في بث خطابه، تمثلت بسمايات عامة، انسربت في المعرفة والإخلاص والحماس والدربة، وسمايات شخصية هي الموضوعية والصدق والوضوح والدقة والاعتزان الانفعالي، وسمايات إقناعية هي القدرة على التحليل والابتكار، والعرض والتعبير، وضبط الانفعال، وتقبل النقد. وختمت الدراسة بضميمة حوت "السمايات الفنية للخطاب السجالي عند شاكر"، فكانت في جانب اللغة، والتصوير والموسيقى.

السجال: المصطلح والمفهوم:

السجال لغة:

تقول المعجمات العربية، في مادة "سجل" إنها المفاخرة لأحدهم على الآخر، "بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي... يستقي ساقيان، فيخرج كل واحد منهما في سجله (دلوه) مثل ما يخرج الآخر، فأيهما نكل فقد غلب، فإذا قيل: فلان يساجل فلانا فمعناه أنه يخرج من الشرف مثلما يخرج الآخر، فأيهما نكل فقد غلب" (١).

السجال اصطلاحا:

يعرف السجال (polemic) في قاموس أكسفورد للمصطلحات الأدبية بكونه " ما يكتب للهجوم على رأي أو سياسة، وغالبا ما يستخدم في الخطابات الدينية أو السياسية، كما يوظف في الفلسفة والنقد"، وهو تلك الطريقة البلاغية التي تتجاوز حد المناظرة أو المناقشة (debate) في مستواها البسيط بطرق عدة، ويعود في أصله في البلاغيات القديمة إلى المصطلح التالي (Gk., polemiketéchné) إذ يعتمد على خطاب حجاجي يتطلع إلى وضعية القضاء على حجة الخصم إن لم يكن يتطلع إلى القضاء على الخصم نفسه. ويتجه هذا الفعل عمليا إلى الجمهور الذي يمكن أن يكون وهما رغبة في تقديم الدعم لوضع المساجل. ويقود ذلك إلى مصطلح يشير إلى الدفاع العقائدي أو وضعية الدفاع السجالي (apologetics) وهو آلية رد الفعل في السجال ومحاولة الإقناع، وكلا المصطلحين يميل إلى أسلوب المهاترات ومحاولات التبرير، وتعود أصول هذين المصطلحين إلى الخطاب الديني إذ يتم شجب مذاهب أو ممارسات يعتقد بخطئها، ومحاولة إلغائها واحدة واحدة رغبة في تأكيد الذات، ويعتمد كلا المصطلحين على منظومة واسعة من أشكال التفاعل وبتطرق متنوعة.

قد يكون الخطاب السجالي واحدا من أكثر أنواع الخطاب الناسجة للنظام الخطابي العام، ومن أقلها تحديدا، مما يستوجب فك عرى التشابك بينه وبين نظائره من أنواع الخطاب، مثل المناظرة والمجادلة والنقيضة والذم والمشاحنة والماتنة والمغالبة والمنافلة والمجادبة والحوار والحجاج والمباهلة والأجوبة المسكتة، وبتتبع الجذور والأنساع نكتشف أن السجال يترعرع عادة في بيئة اجتماعية مشحونة بأسباب الاختلاف والفرقة، فهو مبعث أسئلة حازمة متطلبة لإجابات لا تحتمل الإرجاء، فالسجال تنظيم يشبه حلبة صراع، يسعى فيها كل طرف إلى تضييق الخناق على المنافس ولجم صوته، فكل طرف ينطلق من مسلمات لا يمكن الإحادة عنها، وانعدام إمكانية استدرجاه لتبني غير ما يعتقد، ولا حتى إمكانية تعديل ما يتبنى من اعتقاد، فهو لا يألو جهدا لكشف تهافت ما يدعي خصمه وإظهار إفلاسه في نظر المتلقي الضمني (الطرف الثالث) المنشود إقناعه، وهو الموكل بعملية التقويم في نهاية المطاف، والحكم بالغبلة والظهور على المنافس، ولبلوغ هذه الغاية يحرص الطرفان على الوسائل الكفيلة بتحقيق النتيجة المطلوبة، متناسين قيمتها الحجاجية، ومدى وجاهتها، مركزين على مدى فعاليتها، وقدرتها على الوصول إلى الهدف المنشود.

والسجال يختلف عن جميع نظائره وأترابه، حيث يمكن في الحوار تعديل موقف المحاور والالتقاء معه على أرضية مشتركة، أما المناظرة والحجاج فمن تطبيقات اللسانيات النصية تهدف إلى الإقناع والإفحام معا، ومن ثم فهما مرتبطان بالمتلقي وبالأخر، لذلك يكتسبان صفة تداولية، مما جعلها يلجان

حقل التداوليات^(٢) أما الجوابات المسكتة فهي نمط مغاير بما تمثله من حضور للبدئية، وسرعة الجواب المسكت المفحم المنبثق عن مساءلة فيها نوع من الاستفزاز^(٣)، فـ: "أحسن الجواب ما كان حاضرا مع إصابة المعنى، وإيجاز اللفظ وبلوغ الحجة"^(٤)، و"حضور الجواب يكون ظفر في الحاجة، وأما إيجاز اللفظ فليكون صافيا من الحشو، وأما بلوغ الحجة فليكون حسما للمعارضة"^(٥). فهو ارتجال وسرعة إجابة وحضور بدئية. ومصطلح "الجدل أو المجادلة قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين"^(٦).

وأخيرا تأتي المناظرات بوصفها لونا من ألوان الخطابة الاستدلالية^(٧) تهدف إلى كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معا، حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب^(٨).

البيئة المؤسسة لسجلات محمود محمد شاكر:

ولد محمود محمد شاكر في الإسكندرية في فبراير سنة ١٩٠٩م، وهو من أسرة صعيدية الأصل^(٩)، غادرت الإسكندرية فور مولده إلى القاهرة، حيث كانت نشأته جراء تعين والده وكيلا لمشيخة الأزهر، وظل في القاهرة حتى وفاته في أغسطس ١٩٩٧م.

تكشف معاينة الواقع الثقافي لمحمود محمد شاكر عن صراع حاد في الأوساط السياسية والدينية والاجتماعية، ففي الجانب السياسي هناك عديد من الأطراف المتصارعة والمنافسة، حيث كان الواقع أشبه بحلبة صراع في ذلك الحين بين طرفين بدءا بمؤيدي الأتاتوركيين ومبادئهم في مقابل من يعارضون إلغاء

٢- الحواس مسعودي، "البنية الحجاجية في القرآن الكريم"، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد ١٤، ديسمبر، ١٩٩٧م، ص ٣٢٨-٣٢٩.

٣- مصطفى البشير، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، دار البازودي، عمان، ٢٠٠٩م، ص ١١٥.

٤- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، طبعة مصر، ١٩٤٢م، ج ٣، ص ١٦٣.

٥- المرجع نفسه، ج ٣، ص ١٦٣.

٦- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني شرف، مكتبة لبنان، ١٩٦٩م، ص ١٧٦.

٧- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٢٠٣.

٨- حبيب أعران، "الحجاج والاستدلال الحجاجي"، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع ١١، م ٣٠، سبتمبر ٢٠٠١م، ص ١٠٩-١١٠.

٩- انظر: محمد رشاد سالم وآخرون، دراسات عربية وإسلامية، مهداة إلى أديب العربي الكبير أبي فهر، بمناسبة بلوغه السبعين، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٣.

الخلافة سنة ١٩٢٤م، مروراً بثورة الضباط الأحرار سنة ١٩٥٢م ضد الحكم الملكي، وقد كان شاكراً من المتحمسين لها المهاتفين لسقوط النظام الملكي، إضافة إلى ما تبع ذلك من تحول النظام الناصري عن الإخوان المسلمين بعد ما كان بينهما من تعاضد، تبع هذا التحول تحول شاكراً ومناهضته للناصرين بكل ما أوتي من قوة في القلم واللسان، وتحمل تبعه ذلك فسجن مرتين بسبب آرائه ومواقفه الجريئة، الأولى لمدة تسعة أشهر سنة ١٩٥٩م، والأخرى ثمانية وعشرين شهراً سنة ١٩٦٥م^(١٠). وانتهاء بسقوط فلسطين، وانحياز طرف من أطراف السجال إلى الخضوع والاستكانة وتبعية الاستعمار.

أما الجانب الثقافي، فانسرب في طرفين متنافسين، يرى أولهما في حذو الغرب رفعة وجلال شأن، وآخر يرى في ابتعاث تراث الأمة العريق وسيلة لتقدم الأمة ونهضتها. فقد ترك تدين والده الشيخ محمد شاكراً في نفسه أثراً عميقاً، إذ آمن إيماناً عميقاً بالثقافة الإسلامية، وناصح عنها في كتاباته، "كأنه في ميدان قتال"^(١١)، وورث عن والده جراءة الرأي، وصراحة القول، وكراهة أساليب المواربة، فهو يصدع بما يؤمن به، غير مبال بما قد يصنع به أعداؤه، مهما تكن قوتهم، وشدة كيدهم، فوالده شخصية أزهريّة، وعالم من كبار العلماء، تبوأ غير منصب، حيث عين أميناً للفتوى، ثم نائباً لمدير محكمة القليوبية، وقاضٍ للقضاة في السودان، ثم شيخاً لمعهد علماء الإسكندرية، ثم وكيلًا للجامع الأزهر، ثم عضواً في الجمعية التشريعية، وهي وظائف تؤشر ما كان عليه والده من لياقة وكياسة وامتلاك للخطاب، بل هو أقوى رجل ظهر في الأزهر، لذلك لم يكن يصمد له أحد في مناظرة أو جدال، لإبداعه في إقامته الحجّة، وإفحام المناظر لخصب ذهنه، وتسلسل أفكاره وانتظامها على قواعد المنطق الصحيح السليم^(١٢)، كل تلك الصفات انحلت في سجلات ولده^(١٣).

كذلك كان لأخيه أحمد دور واضح في تكوينه الثقافي، فقد كان محباً للتعليم، قرأ العديد من أمهات الكتب^(١٤)، ونال الشهادة العالمية، وعين قاضياً فريئساً للمحكمة الشرعية العليا، وكانت مؤلفاته وتعليقاته صراخاً علنياً مع دعاة العلمانية مهاجمة بلا هوادة القوانين الوضعية، وأصبحت محرضاً أصيلاً

١٠- محمد رشاد سالم وآخرون، دراسات عربية وإسلامية، ص ١٩.

١١- إبراهيم الكوفحي، محمود محمد شاكراً، سيرته الأدبية ومنهجه النقدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ١٩.

١٢- أحمد محمد شاكراً، محمد شاكراً، ص ٣٠٦-٣٠٧.

١٣- يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٣م، ج ٢، ص ٤٦٦.

١٤- انظر: أحمد محمد شاكراً، كلمة الحق، مكتبة مصر، ط ٢، ١٩٨٨م. ومحمد شاكراً، حكم الجاهلية، دار الاستقامة،

مصر، ١٩٩٢م.

لبعض الجماعات الإسلامية التي أعلنت الثورة على الحياة العلمانية وحماتها^(١٥). ولطالما أكد محمود محمد شاكر خلق الرفض في شخصه، وكيف أنه ظل يلازمه، يقول: "وأنا امرؤ لا أحب الهمس والدندنة في الآذان سرا، ولا أحب التناجي الخفي بالإثم والعدوان تحت ستار من الظلمة، وأكره من يدور باللائمة من مجلس إلى مجلس، غير معلن ولا مصرح"^(١٦). وقوله أيضًا: "وأحب شيء إلى أن أقول ما أريد جهره بلا مدهانة ولا استخفاء ولا مداورة"^(١٧). ومما يؤكد هيمنة فكرة المساجلة على البنية الفكرية لشاكر ما تراه فيها يدعى جمعية الشبان المسلمين، إذ يعد محب الدين الخطيب أول من فكر في إنشاء جمعية للشبان المسلمين على غرار جمعية الشباب المسيحية التبشيرية، خاصة بعد تزايد نشاطها في دعوة المعادين للإسلام لإلقاء محاضرات في دارها. من هنا عرض الفكرة على مجموعة من الشيوخ والشبان، مما كانوا يختلفون إلى مكتبه، منهم محمود شاكر الذي كان له دور كبير في بث فكرة هذه الجمعية بين زملائه الطلبة في الجامعة المصرية، وتشجيعهم للالتفات حولها، والمساهمة في إبرازها إلى حيز الوجود^(١٨).

أما الهجمة على اللغة العربية والدين الإسلامي، فقد وجدت صدى بالغا في نفس شاكر، إذ راعه ما رأى من جور في محاولة استئصال شفة هذه الأمة ودينها، فكانت محاولة الاستئصال آتية من طرفين: مباشر ومتوار. مباشر تمثل في كل عدو واضح سواء كان في الشرق أم في الغرب من أولئك المبشرين وغيرهم. ومتوار تمثل في قسمين، المستشرقين الذين هم أشد خطرا على الدين واللغة من الأعداء الخالص، ونوع انطلت عليه الحيلة من أبناء جلدته الذين تبنا ما نادى به المستشرقون وآمنوا به، هذه الهجمة كانت باعثا ومحفزاه في محاولة حسر مدهم.

لأجل ذلك كله ولإدراكه عظم أهمية الخطاب شغلت (الكلمة) محمود محمد شاكر في طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته، فأحس بأهميتها، وأدرك أن الكلمة وحدها تنقل إليه الأشياء التي يراها بعينه، وتنقل إليه بعض علائقها. يقول: "لكنني لا أزال أذكر لمحا كالوميض يلوح ويخفى من عهد أول طفولتي، إذ كنت أسمع من كان في بيتنا حين يتحدثون بطلاقة وذلاقة لا يطبق مثلها لسان غض قريب عهد بصمت الطفولة الطويلة، وبعجزها المتلهف إلى الإبانة، وبنزاعها الدائب إلى محاكاة الكبار"^(١٩). فلما

١٥- راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٨.

١٦- محمود محمد شاكر، أباطيل وأسار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٥م، ص ١٧٩.

١٧- المرجع نفسه، ص ٣٦٣-٣٦٤.

١٨- محمود محمد شاكر، "جمعية الشبان المسلمين"، الفتح، العدد ٤٠١، ٢٩ يونيو، ١٩٣٤م، ص ٧-٩.

١٩- المرجع نفسه، ص ٥٥٥.

كبر أدرك سر عظمة الكلمة وتذكر إحساسه القديم، يقول: "انفتحت لي الأبواب المغلقة على إحساسي القديم بخطر "الكلمة"، فإذا هي التي تفتح بصيرتي، فترى وتبصر ما لا يدركه البصر، وما لا يقع عليه الحس، وعلمني كتاب سيبويه يومئذ أن اللغة هي الوجه الآخر للرياضيات العليا، أو من يومئذ صارت الكلمة عندي هي الحياة نفسها، هي عقلي، هي فكري، هي سر وجودي ووجود ما حولي" (٢٠).

وعى محمود بأهمية "الكلمة" لم يدفعه إلى العناية باللغة العربية وأدبها فحسب، إنما كان يحضه على مواصلة تعلم اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأجنبية، يرجع ذلك إلى مفهوم "الكلمة" عنده، فهي "البيان" الذي هو نعمة الله الكبرى على عباده، مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، فمن استهان بها فقد استهان بأجل نعم الله على خلقه، وبالنعمة الكبرى التي أخرجته من حد البهيمة العجماء، إلى حد الإنسان الناطق، كما يرجع ذلك إلى إيمانه بأن المرء لا يستطيع أن يعرف حقيقة عدوه إلا بعد تمام معرفته لحقيقة لغته (٢١).

ولعل أبرز أدبيين كان لهما أعظم الأثر في تعميق إحساس محمود شاكر بخطر "اللغة"، وفي عشقه العربية وآدابها، سيد بن علي المرصفي، ومصطفى صادق الرافعي، فأولهما من ألمع الأساتذة الذين تولوا تدريس الأدب العربي القديم في الجامع الأزهر، كانت حلقتهم مهرجانا يضم الأدباء والشعراء على اختلاف بيئاتهم وألوانهم، ويحرص على حضورها كل من عشق الأدب، وتوثقت العلاقة بين شاكر وبين المرصفي بمرور الأيام، فقد تحدث عن أثر المرصفي في نفسه، وكان ينعته دائما بقوله: "إمام العربية" (٢٢)، لتمكنه منها، وحرصه على سلامتها، وقدرته الفائقة على الغوص في أعماقها، وتذوق بيانها.

كذلك ترك الرافعي أثرا واضحا في حياة شاكر الأدبية والفكرية، وفي علاقته مع أدباء عصره، فنجدته في كتابته إلى بعض أصدقائه يذكر محمودا بوصفه واحدا من تلاميذه وأنصاره، يقول في إحدى رسائله سنة ١٩٣١م: "وكتب إلي ابن الشيخ شاكر وهو من أكبر المخلصين لنا، أن العقاد تناقض في هذا الكتاب ابن الرومي حياته وشعره تناقضا فاحشا (٢٣)، ويقول في موضع آخر: "وابن الشيخ شاكر هذا من المخلصين لنا كل الإخلاص، والمتعصبين كل التعصب أكثر الله من أمثاله" (٢٤). ولا ريب أن لهذه العلاقة

٢٠- المرجع نفسه، ص ٥٥٩.

٢١- المرجع نفسه، ص ٥٦١، ٥٦٢.

٢٢- محمود محمد شاكر، على حد منكب الرسالة، العدد ١٩٠، ديسمبر، ١٩٥٠م، ص ١٣٨٧. ومحمود محمد شاكر، "كانت الجامعة هي طه حسين"، الكاتب، العدد ١٦٨، مارس، ١٩٧٥م، ص ٢٨.

٢٣- محمود أبو رية، رسائل الرافعي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ٢١٠.

٢٤- المرجع نفسه، ص ٢٣٦-٢٣٧.

دورا كبيرا في علاقة محمود محمد شاكر بطه حسين التي كانت على النقيض من علاقته بالرافعي، ملؤها الخلاف والجدل، مما كان له أعظم الأثر في حياة محمود الشخصية والأدبية. فالرافعي كان على خلاف حاد مع طه حسين، خلاف تحكمه قضايا الصراع بين القديم والجديد، الذي كان مشتتلا بين الأدباء والنقاد في تلك الحقبة.

إضافة إلى ما سبق كان الرافعي والعقاد على طرفي نقيض، بسبب ما بينهما من التباين في طبيعة المزاج والتكوين الثقافي والمناسبة، وسوى ذلك من دوافع الصراع الكثيرة^(٢٥). وإن كان النزاع بين الرافعي والعقاد قد انتهى بوفاة الأول، فإنه سرعان ما عاد من جديد على صفحات مجلة الرسالة بين تلاميذهما وأنصارهما، واستمر قرابة ثمانية أشهر، من ٢٥ أبريل إلى ١٤ نوفمبر ١٩٣٨م^(٢٦). وقد كان محمود محمد شاكر أول من نهى للرد على سيد قطب، الذي راح يحط من منزلة الرافعي الأدبية والنقدية، ويعلي من شأن أستاذه العقاد^(٢٧). ومن السهل أن نتبين أن الخلاف بين محمود شاكر وقطب لم يكن إلا امتدادا للخلاف القديم بين الرافعي والعقاد، فقد راح كل واحد منهما يطري أستاذه، ويحلي مذهبه في الأدب والنقد، موجهها في الوقت عينه التهم والعيوب إلى خصمه، وإذا كان سيد قطب يعنون مقالاته "بين العقاد والرافعي" مقدما أستاذه، فقد راح محمود في مقابل ذلك يعنون مقالاته "بين الرافعي والعقاد" مقدما هو الآخر أستاذه^(٢٨).

من هنا يمكن إجمال القول بأن شاكر خاض صراعات كثيرة "بل إن حياته تكاد تكون صراعا كلها"^(٢٩)، وسجلاته قطعة من روحه، "فإنك واجد الجدة والعراقة، وتبني الحق والجمهور به، والثبات عليه والسمو للكمال"^(٣٠).

-
- ٢٥- انظر تفاصيل الصراع بين الرافعي والعقاد في: محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٨٥-٢٠٣. وعامر العقاد، معارك العقاد الأدبية، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٨-١٦.
- ٢٦- انظر: أنور الجندي، المعارك الأدبية في مصر منذ ١٩١٤-١٩٣٩م، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢٦٤-٢٨٨.
- ٢٧- انظر: محمود محمد شاكر، "سيد قطب بين العقاد والرافعي"، الرسالة، العدد ٢٥١، ٢٥ أبريل ١٩٣٨م، ٩٦٢ و ٢٥٢، ٢ مايو ١٩٣٨م، ٧٣٢ و ٢٥٤، ١٦ مايو ١٩٣٨م، ٨١٣ و ٢٥٥، ٢٣ مايو ١٩٣٨م، ٨٥٤.
- ٢٨- إبراهيم الكوفحي، محمود محمد شاكر، ص ٣٩.
- ٢٩- محمود محمد شاكر، "مدحني الناس بما ليس في"، مجلة الأدب الإسلامي، ص ٥٩.
- ٣٠- عبد الحميد إبراهيم، "محمود شاكر، الرجل والموقف"، مجلة الأدب الإسلامي، العدد الخاص، ص ٢٦.

فقد حارب على جبهات عدة، حارب الدعوة إلى العامية، وحارب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية، وحارب الخرافات والبدع^(٣١). ولا بد من الإشارة إلى أن النتائج النهائية لتلك الصراعات كانت لشاكر، "إذ إن المجتمع الأدبي بعد نحو ثلاثين سنة تقريبا من السجال أسقط لويس عوض وما يمثله، واعترف بأهمية الدور الذي قام به محمود محمد شاكر، في مجال الدفاع عن هوية الأمة وتراثها"^(٣٢).

استراتيجيات تلقي الخطاب السجالي في أدب شاكر:

السمات العلمية للخطاب السجالي في أدب محمود محمد شاكر:

ثقافته الواسعة:

لا ينكر ما كان يتمتع به شاكر من ثقافة واسعة تجلت في خطابه السجالي، وقد تأتت تلك الثقافة جراء دروس سيد بن علي المرصفي سنة ١٩٢٢م، عن طريق حضور دروسه التي كان يلقيها بعد الظهر في جامع السلطان برفوق، ثم أخذت تتوثق مع مرور الأيام، فصار يختلف إلى بيته يقرأ عليه بعض أصول كتب الأدب والشعر، ومما عزز ثقافته وعمقها معرفته طه حسين عندما كان في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٦م، حيث بدأ بالاستماع إلى محاضرات أستاذه طه حسين في الشعر الجاهلي. وقد أدت كتبه وصحبة العلماء دورا مهما في سعة ثقافته، فلم يكن يزحزح محمودا عن كتبه فيخرجه عن عزلته التي ارتضاها إلا عالم كبير يسمع بوفوده على مصر، فيخف إلى لقائه وملازمته والأخذ عنه، منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الإدريسي أحد أكبر علماء المغرب، عبر عن إعجابه به في مجلة المقتطف، يقول: "جاءتنا هذه الرسالة البليغة في وصف الشريف الكتاني الذي زار مصر في طريقه إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، من حيث هو عالم من أكبر علماء الفقه الإسلامي، وأديب واسع الاطلاع عميق الفهم، جمع خزانة من أنفس المخطوطات العربية وأغناها في داره بفاس"^(٣٣).

ولا يخفى ما لرحلاته في أعماق التراث العربي من دور بالغ في سعة ثقافته، خاصة بعد أن آثر العزلة في بيته، رافضا كل المناهج الأدبية التي كانت سائدة في زمنه، وبدأها بإعادة قراءة كل ما وقع تحت يده من الشعر العربي، قراءة متأنية متذوقة، ثم قراءة كل ما وقع تحت يده من كتب القدماء من تفسير

٣١- محمود الطناحي، مقالاته في التراجم والتراث واللغة والأدب، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢م، ص ٤٣٦.

٣٢- حلمي القاعود، معارك محمود محمد شاكر الأدبية، مقالة على الإنترنت، شذرات أدبية، ص ٣٦.

٣٣- محمود محمد شاكر، "الشريف الكتاني"، المقتطف، مج ٨٢، إبريل ١٩٣٣م، ص ٤٨٣.

للقرآن، إلى علوم القرآن على تنوعها، إلى كتب الحديث النبوي وشروطها، إلى ما تفرع عنها من كتب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل إلى كتب الفقهاء وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب الأدب وكتب البلاغة وكتب النحو وكتب اللغة وكتب الملل والنحل وكتب التاريخ إلى غير ذلك من أنواع العلوم الكثيرة^(٣٤).

الموضوعية:

تمثلت في قدرة شاكر على السلوك والتعرف، وإصدار أحكام غير متحيزة لعنصر أو رأي أو سياسة والعدالة في الحكم على الأشياء، والتحدث بلسان مصالح المستحقين، وليس المصالح الخاصة. جاء ذلك في معظم نتاجه منه على سبيل المثال لا الحصر. فنراه هادئاً سلسلاً، يقول: "أنت تعلم أنني بقيت في الجامعة سنتين لم أبحر، وتعلم ما كنت أقوله عن "مسألة الشعر الجاهلي" التي نسمعها في محاضرات الدكتور طه، وان هذا الذي نسمعه ليس إلا "سطوا" مجرداً على مقالة مرجوليوت، وأنت وجميع الأساتذة تعلمون صحة ذلك، وفي خلال السنة الماضية نشرت كتب ومقالات في الصحف تكشف ذلك أبن كشف، ولكن لم يكن لهذا الكشف عندكم في الجامعة صدى إلا الصمت، فهذا الصمت إقرار من الجامعة وأساتذتها بهذا المبدأ، "مبدأ السطو"، مضت علي ستان صابراً، أما الآن فلم أعد قادراً على التوفيق بين معنى "الجامعة" في نفسي، وبين هذا المبدأ الذي أقرتموه، فتقوض معنى "الجامعة" وأصبح حطاماً، فكيف تطالبونني بأن أعيش سنوات أخرى بين الحطام والأنقاض"^(٣٥).

الصدق:

فقد عكس الحديث حقيقة مشاعر شاكر وأفكاره وآرائه، وتتطابقت أحوال شاكر مع أفعاله وتصرفاته. فقد ظل منافحاً عن مبادئه حتى وفاته. يقول في شعور وإحساس نابع من القلب يصف تحسسه لديب المكر الخفي يتسرب من وراء سطور قرأها للويس عوض: "ولكنني كنت امرأً نهما يأخذه للكلام المكتوب سعار، فتناولت الصحيفة وبدأت أقرأ سطرًا بعد سطر، وكان الضحك يشق عن حلقي، ويباعد بين فكي... حتى فوجئت بشيء أمسك علي ضحكي، وكظمه في بلعومي، شيء سمعت حس ديبه من تحت الألفاظ، فجعلت أستسمعه فإذا هو:

كَشِيشُ أَعْمَى أَجْمَعَتْ لَعَضُّ فَهْيَ تُحْكُ بَعْضَهَا بِبَعْضِ

٣٤- محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، سلسلة كتاب الهلال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٦-٧.

٣٥- محمود محمد شاكر، المتنبي لينتي ما عرفته، (١)، ص ١١-١٢.

الوضوح:

إذ امتلك القدرة على التعبير عن الأفكار بوضوح من خلال اللغة البسيطة، والمادة المنظمة والمتسلسلة منطقياً. ميزت سمة الوضوح الخطاب السجالي لشاكر، فهو لا يحب الغموض والإبهام، ويقول كل ما يريد جهراً بلا استخفاء ولا مداورة، لأنه منذ كان على هذه البسيطة لا يطيق أن يسلك إلا السبل الواضحة البارزة، ولا يلوذ بالطول متخفياً إلى غاية يريد لها، فذلك شيء يعافه، وينزه نفسه عنه في خاص أموره وعامها^(٣٦). "فأنا أحب المكاشفة، ولا أرضى إلا بالمصارحة بالرأي والاستقامة بالتعبير"^(٣٧). ويسوغ ذلك قوله: "لأن سلامة الإنسانية وسلامة الفعل وسلامة النفس لا تنال ولا تدرك إلا بالوضوح، ووضوح اللفظ، ووضوح الرؤية، ووضوح التعبير، ووضوح المعاني، ووضوح الطريق، وبهذا وحده فارقت حضارة أهل الإسلام سائر الحضارات ما سبق منها وما أتى بعدها"^(٣٨).

الدقة:

من أهم ما يميز بث الخطاب السجالي لشاكر دقته في الكلمات التي يستخدمها حيث تؤدي المعنى الذي يقصده بعناية، وحرص شاكر على الدقة في عبارته جعله يطلب من غيره هذه الدقة. حرص شاكر على اختيار الألفاظ التي توصل إلى القصد الذي في نفسه بدقة متناهية، لأن معاني الكلمات قد تتقارب، لكن بعضها أدل في المعنى من بعض. ومن ذلك وصفه كلاماً لطفه حسين لم يبين "فإن مثل الذي جمجت به من القول"^(٣٩)، والجمجمة هي عدم تبيين الكلام^(٤٠). وقوله: "ذاهب إلى أسفل وإلى طلب الأسفل، ذاهب إلى الأعلى وإلى درك الأعلى"^(٤١)، وهو يريد أن يبين هنا فرقا ما بين الاثنين، فنكر كلمة "أسفل" وعرف كلمة "الأعلى" وأن الذي يذهب في سفال لا يعنيه في الغالب أين يذهب به، أما من يريد العلو فهو يبصر مقصده ويعرفه فيعمد إليه^(٤٢).

٣٦- محمود محمد شاكر، أباطيل وأسفار، ص ٣٢٢.

٣٧- المرجع نفسه، ص ٨٦.

٣٨- محمود محمد شاكر، "مواقف"، الكاتب، العدد ١٧٠، مايو ١٩٧٥م، ص ٢٣-٢٤.

٣٩- محمود محمد شاكر، المتنبي، ص ٤٣٣.

٤٠- ابن منظور، لسان العرب، مادة: حم.

٤١- محمود محمد شاكر، جبهة المقالات، تحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، ٢٠٠٣م، ص ٨٢٩.

٤٢- إبراهيم أبانمي، مقالات حارس التراث أبي فهر، محمود محمد شاكر، جامعة الإمام محمد بن سعود، ٢٠٠٦م، ص ١٩٠.

الاتزان الانفعالي:

ويقصد به أن إظهار شاكر لانفعاله بالقدر الذي يتناسب مع الموقف، وأن يكون متحكماً في انفعالاته. فيعلو ويخبو حسب تقديره للموقف وإيانه بالمبدأ، فنرى نيرانه تصطدم في رده على لويس عوض في أباطيل وأسهار حين أحس منه مساساً باللغة العربية، يقول عنه في معرض وصفه له بالبراعة في وضع السم في الدسم في مقالاته يقول: "شيء جاءني بالعثانة والغثيان، والبلاء الكريه، وإن كنت يومئذ من أحوج الناس إلى الترفيه عن نفسي ببعض الضحك، فلقد كنا برهة من الدهر نقول عن هذا "الشرلتان" وأضرابه ونظرائه من "الشرلتانات" و"الجهكبارات"، نقول عنهم: إنهم "خوارج على الدعوة، مرجئة مع الحكام، فلقد دار الزمان دورته، وازدادت حالة القوم سوءاً، فصاروا خوارج على الأمة بأسرها والشعوب جميعها، فالأمة بشعوبها عند هذا "الشرلتان" أحد ثلاثة إما عميل مدفوع، أو صاحب فكر منحرف، أو صاحب مطامع دنيوية، والشعوب هم أيضاً القتلة المجرمون الظلمة، سفاكو الدماء، والمفسدون في الأرض بأنواع شتى من الفساد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤٣) يصدق عليهم، والأحكام الواردة في هذه الآية يستحقونها شرعاً، هذا حال القوم مع الشعوب المظلومة المقهورة المسحوقة.

المنطق:

اعتمد في سجاليته على المنطق والإقناع العقلي في إثبات القضايا وإبطالها. يقول: "ويا له من كذب لا يفله إلا الحق الأبلج، فأين نحن من هذا كله أين، أفي التعصب، وتعدد المساوي الماضية، وبسط الألسنة في المطوي من الأحداث القديمة؟ إننا لن ننال شيئاً إذا فعلنا إلا الخزي والعار، وعرض فضائحنا على أعين الناس! إننا أيها السادة محاربون ففعلوا فعل المحاربين في ساحة القتال لا مثل المتناقلين على قارعة الطريق" (٤٤).

ضروب الخطاب السجالي في أدب شاكر:

سجال مقالي:

استأثرت المقالة عند محمود شاكر بجانب كبير من الخطاب السجالي، فكثير من أعماله جاءت على شكل مقالات مثل: أباطيل وأسهار، ونمط صعب ونمط مخيف، حيث كان في مقالاته ينافس كبار كتّاب

٤٣- سورة المائدة، الآية: ٣٣.

٤٤- محمود محمد شاكر، جمهرة المقالات، ص ٣٦٣.

العصر في كبريات المجالات الأدبية، وإن هذه المجالات قد شهدت نشاطه الفكري والأدبي، كذ: الرسالة، والمقتطف، والبلاغ، والمجلة، والثقافة، والمسلمون، وغيرها، ومن خطابه السجالي المقالي حين شرع لويس عوض في سنة ١٩٦٤م في كتابة هامشه على رسالة الغفران الذي خلص فيها إلى نتائج أثار شاعر، فرد على صفحات الرسالة في خمس وعشرين مقالة ضافية، وهي التي جمعت فيما بعد بكتاب أباطيل وأسهار، والتي جاءت على نسق فريد بما أحاطها به من تخطيط ذكي لمعركة شرسة مع منابر الثقافة، ودوائر التبشير، والاستشراق، والاستعمار^(٤٥)، فبسط القول في ضوابط المنهج، وكشف عن أخطاء لويس عوض، وبين جهله بأسرار البيان العربي، وتسارعه في الحكم على الأدب العربي. وفي أواخر سنة ١٩٦٤م ينتصب للرد على لويس عوض الذي كان ينشر يومئذ سلسلة من المقالات الصحفية في ملحق جريدة الأهرام عن أبي العلاء المعري، وكتابه رسالة الغفران تحت عنوان على هامش الغفران^(٤٦). وقد استمرت ردود محمود التي كان ينشرها في مجلة الرسالة الجديدة على لويس عوض وغيره من الكتاب المعاصرين في قضايا أدبية ولغوية ودينية وتاريخية مختلفة من عدد الرسالة ١٠٨٩، ٢٦ نوفمبر ١٩٦٤م، حتى عددها ١١٢٢، ١٥ يوليو ١٩٦٥م، ليكون الحاصل أربعاً وعشرين مقالة هي التي فيما بعد ضمها كتابه أباطيل وأسهار الذي صدر سنة ١٩٧٢م، إضافة إلى كلمة أخيرة، لم ينشرها في الرسالة، جعلها تحت عنوان ضفادع في ظلماء الليل^(٤٧).

ومثل ذلك فعل في سنة ١٩٦٩م على صفحات مجلة المجلة، رداً على أسئلة طرحها يحيى حقي حول قراءة القصيدة الجاهلية، في معرض تعليقه في افتتاحية المجلة، عدد مارس ١٩٦٩م، على مقالة في هذا العدد لعبد الغفار مكاوي تحت عنوان "جوته والأدب العربي"، ترجم فيها عن الألمانية ترجمة جوته للقصيدة الجاهلية إن الشعب الذي دون سلع^(٤٨)، فقد مجد يحيى حقي ما قام به جوته من إعادة ترتيب أبيات القصيدة، زاعماً افتقار القصيدة الجاهلية إلى الوحدة. حملت الأسئلة العديدة التي طرحها حقي محمود شاعر للرد بسبع مقالات طوال في منهج قراءة الشعر الجاهلي بعامه، وقراءة قصيدة إن بالشعب خاصة، وكان ينشرها تحت عنوان نمط صعب ونمط مخيف، واستمر في نشرها من عدد من المجلة ١٤٧، أبريل ١٩٦٩م، حتى عددها ١٥٩، مارس ١٩٧٠م، ثم نشرها بين دفعتي كتاب سنة ١٩٩٦م.

٤٥- عمر القيام، محمود محمد شاعر، الرجل والمنهج، دار البشير، عمان، ١٩٩٧م، ص ٧٠.

٤٦- لويس عوض، على هامش الغفران، سلسلة دار الهلال، العدد ١٨١.

٤٧- أنظر: محمود محمد شاعر، أباطيل وأسهار، ص ٥٥٣.

٤٨- عبد الغفار مكاوي، "جوته والأدب العربي"، المجلة، العدد ١٤٧، مارس ١٩٦٩م، ص ٣٤-٣٥.

وقد تنوعت هذه المقالات في أدبه، فكان أولها المقالة الأدبية، تعالج قضايا الأدب والنقد واللغة التي كانت تستأثر بمعظم جهده، حيث كان يستعرض من خلالها الكتب التي تظهر حديثا، ويبيدي غير قليل من الآراء النقدية في منهجها وقضاياها، وأحيانا كان يرد على بعض الكتاب الذين يتعرضون لأعماله بالنقض، ويعالج كثيرا من القضايا الأدبية والنقدية في القديم والحديث.

وانبنت المقالة الأدبية عنده على أشكال عدة، بدأها بعرض الكتب ونقدها، فقد أخذ على زكي مبارك في كتابه النشر الفني في القرن الرابع رأيه الذي يعد فيه القرآن الكريم، "من صور العصر الجاهلي، إذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليدته وتعابيره" (٤٩)، فقد بين شاكر تهافت مثل هذا الرأي، مؤكدا أن القرآن كتاب الله، وما هو من عند الله لا يمكن أن يجيء مطابقا لتصورات العرب وتقاليدهم على ما فيها من الطبيعة البشرية الضعيفة الجاهلة، "وهذا القرآن الذي يعده صاحب الكتاب أثرا جاهليا، هو الكتاب نفسه الذي أعجز عرب الجاهلية جميعا، وتحداهم وطالبهم وسخر منهم، ووضع من آهتهم وحقرها، وأثار بلغاءهم عن الإتيان بمثل سورة من سوره كما طالبهم وتحداهم، ونحن لا ننكر أن كل ما في القرآن من لفظ إنما هو ألفاظ العرب، كما أن أكثر ألفاظ كتابنا الآن بل كتاب القرن الرابع الذي يتكلم عنه صاحبه إنما هي ألفاظ عربية، ونحن لا نعد أسلوبنا أو أسلوب القرن الرابع في النشر مقاربا أو شبيها بالنشر الجاهلي، فكذلك القرآن من النشر الجاهلي بهذه المنزلة، فألفاظ القرآن هي الألفاظ العربية، ولكن نظمه وسياقه وبلاغته ومواقع كلماته المعجزة لا صلة بينها وبين أي كلام من كلام البشر في جاهلية أو إسلام" (٥٠).

وقد أتاحت له مجلة المقتطف في مكتبته مساحة فسيحة لنقد الكتب التي تصدر حديثا، ولا سيما كتب الأدب، وقد بث فيها كثيرا من آرائه وأنظاره في الشعر والشعراء والنقد الأدبي وغير ذلك، ومن هذه الكتب التي عرض لها محمود بالنقد والتحليل على سبيل المثال: المتنبي (٥١) والجاحظ معلم العقل والأدب (٥٢) لشفيق جبري، وأدب الجاحظ لحسن السندوي، والصاحب بن عباد (٥٣) لخليل مردم، وأبو نواس (٥٤)

-
- ٤٩- زكي مبارك، النشر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، ج ١، ص ٤٣٠.
- ٥٠- محمود محمد شاكر، النشر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك، ص ٥١٣-٥١٤.
- ٥١- محمود شاكر، "المتنبي لشفيق جبري"، المقتطف، المجلد ٧٧، نوفمبر، ١٩٣٠م، ص ٤٦٦.
- ٥٢- انظر: محمود محمد شاكر، "الجاحظ معلم العقل والأدب، لشفيق جبري"، المقتطف، المجلد ٨١، أكتوبر، ١٩٣٢م، ص ٣٦٧-٣٦٩.
- ٥٣- انظر: محمود محمد شاكر، أدب الجاحظ لحسن السندوي، و"الصاحب بن عباد لعمر فروج"، المقتطف، المجلد ٨١، نوفمبر، ١٩٣٢م، ص ٤٩١-٤٩٤.
- ٥٤- انظر: محمود محمد شاكر، "أبو نواس لعمر فروج"، المقتطف، المجلد ٨٢، فبراير، ١٩٣٣م، ص ٢٤٠-٢٤١.

لعمر فروخ، وضحي الإسلام^(٥٥) لأحمد أمين، وذكرى الشاعرين لأحمد عبيد، والوحي المحمدي^(٥٦) لمحمد رشيد رضا، وابن عبد ربه، لجبريل سلمان جبور، ورحلة إلى بلاد المجد المفقود^(٥٧) لمصطفى فروخ، وأنتم الشعراء لأمين الريحاني، وآلاء الرحمن في تفسير القرآن^(٥٨) لمحمد جواد البلاغي النجفي، واليبوع^(٥٩) لأحمد زكي أبو شادي، والنثر الفني في القرن الرابع^(٦٠) لزكي مبارك، وديوان عبد المطلب^(٦١)، ومفتاح كنوز السنة لـ: وينسك، وملوك الطوائف، ونظرات في تاريخ الإسلام^(٦٢) لدوزي، والإسلام والحضارة العربية^(٦٣) لمحمد كرد علي وسواها من الكتب وكلها كتب كان له فيها وجهة نظر لا يتزحزح فيها عن رأيه. وأحيانا كان يتخذ سجالة المقال شكل ردود، فيعرض له كاتب بالنقد فيرد عليه مثل الرد على سعيد الأفغاني حول قضية نبوءة المنتبي، إذ اعتقد في إحدى مقالاته التي نشرها في مجلة الرسالة بأن نبوءة المنتبي حقيقة لا سبيل فيها للشك به، وعلق في هامش الصفحة بقوله: "قرأت أخيرا عدد المقتطف الذي كتبه الأستاذ شاكر عن المنتبي خاصة، فإذا به يذهب إلى نفي تنبؤ أبي الطيب الذي اتفقت عليه كل المصادر تقريبا، وقد أنعمت في تدبر الأسباب الحادية على النفي فلم أجد فيها مقنعا، به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة، والتاريخ لا يثبت خبرا أو ينفيه تبعا لميل مؤلف أو رأيه، ولا بد فيه حال النفي من التعرض لجميع الأخبار المثبتة بالتوهين خبرا خبرا وهذا لم يصنعه الأستاذ شاكر"^(٦٤).

-
- ٥٥- محمود محمد شاكر، "ضحى الإسلام لأحمد أمين، المقتطف، المجلد ٨٢، مارس، ١٩٣٣م، ص ٣٦٥-٣٦٥.
- ٥٦- محمود محمد شاكر، "ذكرى الشاعرين لأحمد عبيد"، و"الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا"، المقتطف، المجلد ٨٣، أكتوبر، ١٩٣٣م، ص ٣٦٥-٣٦١.
- ٥٧- محمود محمد شاكر، "ابن عبد ربه وعقده لجبريل سلمان جبور"، و"رحلة إلى بلاد المجد المفقود لمصطفى فروخ"، المقتطف، المجلد ٨٣، نوفمبر، ١٩٣٣م، ص ٤٨٥-٤٨٩.
- ٥٨- محمود محمد شاكر، "أنتم الشعراء لأمين الريحاني"، و"آلاء الرحمن في تفسير القرآن لمحمد جواد البلاغي النجفي"، المقتطف، المجلد ٨٣، ديسمبر، ١٩٣٣م، ص ٦١٣-٦٢٠.
- ٥٩- محمود محمد شاكر، "اليبوع لأحمد زكي أبو شادي"، المقتطف، المجلد ٨٤، مارس، ١٩٣٤م، ص ٣٨٠-٣٨١.
- ٦٠- محمود محمد شاكر، "النثر الفني في القرن الرابع، لزكي مبارك"، المقتطف، المجلد ٨٤، أبريل، ١٩٣٤م، ص ٥١١-٥١٤.
- ٦١- محمود محمد شاكر، "ديوان عبد المطلب"، المقتطف، المجلد ٨٥، يوليو، ١٩٣٤م، ص ١١٤-١١٥.
- ٦٢- محمود محمد شاكر، "مفتاح كنوز السنة لفينسك، وملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، لدوزي"، المقتطف، المجلد ٨٥، أكتوبر، ١٩٣٤م، ص ٢٥٠-٢٥٤.
- ٦٣- محمود محمد شاكر، "الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي"، المقتطف، المجلد ٨٦، يناير، ١٩٣٥م، ص ١٠٩-١١٢.
- ٦٤- سعيد الأفغاني، "دين المنتبي"، الرسالة، العدد ١٦١، ٣ أغسطس، ١٩٣٦م، ص ١٢٥٥.

تلت المقالة الأدبية المقالة الاجتماعية، حيث أسهم فيها شاكر بقضية الإصلاح الاجتماعي التي استأثرت بجهود غير واحد من المفكرين في الأربعينيات، حيث ظهرت الدعوة قوية إلى بعث الإحساس الاجتماعي بالحياة، وضرورة إشعال سراج الهداية التي تأخذ بأيدي الحائرين في دياجير الظلمات من خلال إصلاح نظام التعليم، والرغبة بالنفس عن تقليد الآفات الاجتماعية القادمة من الحضارة الأوروبية.

أما النوع الثالث من المقالات فهي المقالة السياسية، والتي برزت عناية شاكر بكتابتها في الأربعينيات، وحاول أن يعالج مشكلات العالم العربي وصراعه مع الاستعمار الغربي، وكتب طائفة كبيرة من المقالات السياسية التي تؤكد ضرورة اليقظة السياسية، وضرورة توجيه القوى العربية والإسلامية في وجه هؤلاء الغزاة، وبت الدعوة إلى الجهاد، للدفاع عن ديار الإسلام وبيضة المسلمين، فتتابعت مقالاته تباعا على صفحات مجلة الرسالة توقض وتحذر، إلا أنه أدرك سنة ١٩٤٨ م بعد النكبة عدم جدوى الكتابة وأنه كان ينفخ في رماد.

وانسرب النوع الرابع فيما يدعى بالمقالة الدينية، وهي المقالات التي قصرها شاكر للحديث عن موضوع ديني، ولم أرد المقالات التي تسري فيها الرؤية الدينية، فهذا شيء يستوعب أغلب إنجازاته، فقد كان شاكر من أكبر الدعاة إلى الحفاظ على استمرار الوعي الديني بالحياة، ويلحظ المتتبع لمقالات شاكر قلة مقالاته الدينية بالمعنى المتخصص، ليتفرغ لسد ثغرة الأدب والوقوف في وجه الدعاة إلى إفساده. ومن مقالاته الدينية "الرسول صلى الله عليه وسلم" التي يرد فيها على أحد الشعراء الذين نشرها بمجلة الرسالة قصة شعرية عن "إسلام حمزة" (٦٥) رضي الله عنه، أجرى فيها بعض الآيات على لسان الرسول الكريم، حيث أوضح شاكر أن هذا الصنع مما لا يحل أبدا، لأن صاحبه قد أنطق الرسول بما لم يقله، وقد قال: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، ولأن ما أنطقه به من الكلام مصوغ في قالب الذي نزه الله عنه نبيه، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ (٦٦). وفي هذا السياق يؤكد شاكر أن "إنسانية الأنبياء وحدها هي الإنسانية التي أوجب الله على من حضرها من الناس أن يؤمن بها أولا، ثم يحافظ على رواية سيرتها ثانيا، ثم يحتسب ويتدبر فيما ينقل عنها أو يصف منها، لأن نسبة شيء من الأشياء إليها قد يكون مما أخذ منه وهما يخرج مما يقبل من أمر الأنبياء، كحقيقة الرسالة التي أرسلوا بها عن القانون الإلهي الذي عملوا به ليحققوا كلمة الله التي تعلو أبدا وتزهو دائما ويبقى على امتداد الزمن روح الحياة

٦٥- فريد عون شوكة، "إسلام حمزة"، الرسالة، ع ٥١، ٢٥ يونيو ١٩٣٤ م، ص ١٠٧٧.

٦٦- سورة يس، الآية: ٦٩.

البشرية، وميزان أمر الناس في هذه الحياة^(٦٧). ومن جهة أخرى تقسم هذه المقالات إلى مقالات بقيت في مظان المجالات والصحف، وأخرى انتهت بين دفتي كتاب.

سجل المقدمات:

نشر شاكر في سنة ١٩٥٢م تحقيقه ل: طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، فأثارت مقدمته التي كتبها معركة واسعة بينه وبين ناقديه، أسفرت عن عدد من المقالات والكتب منها: السيد أحمد صقر، طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، الكتاب، المجلد ١٢، مارس ١٩٥٣م، ٣٧٩-٣٨٧، ومحمود محمد شاكر، طبقات فحول الشعراء: رد على نقد، الكتاب، المجلد ١٢، أبريل ١٩٥٣م، ٥١٣-٥٢٢، ومحمد يوسف، حول نقد كتاب فحول الشعراء، الكتاب، المجلد ١٢، ١ أبريل ١٩٥٣م، ٥٢٢-٥٢٤، ومصطفى مندور، طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، موسوعة تراث الإنسانية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، المجلد ١، ٦٥٤-٦٧٢، ومخير سلطان، ابن سلام وطبقات الشعراء، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٧م، ١٤٦-١٨٤، وعلي جواد الطاهر، طبقات الشعراء، مخطوطا ومطبوعا، المورد، المجلد ٨، العدد ٣، ١٩٧٩م، ٢٥-٤٦، ومحمود محمد شاكر، برنامج طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٠م، وعلي جواد الطاهر، محمد بن سلام وكتابه طبقات فحول الشعراء، دار الفكر، عمان، ط ١، ١٩٩٥م، ١٢٣-٢٠٤.

وفي سنة ١٩٥٨م كتب شاكر فصلا قيميا في إعجاز القرآن قدم به لكتاب الظاهرة القرآنية لصديقه مالك بن نبي، كشف فيه عن الأصول العامة لنظرية الإعجاز، وأبان بطريقة مدهشة عن العلاقة الدقيقة بين النص القرآني الذي بلغ الذروة في الإعجاز، والشعر الجاهلي الذي كان الأصل البياني الذي تأسس عليه الخطاب القرآني، فأثارت العديد من الردود منها.

سجل كتابي:

مما يؤكد البنية السجالية عند محمود شاكر في بعض كتبه، المواضيع التي عالجها، فهي على جانب كبير من الطرافة والجدة، نلاحظ ذلك في كتاب المتنبي الذي وقف فيه على روعة شعر المتنبي وسموقه في إطار الشعر العربي، فدرس شخصية المتنبي وشعره، وخلص إلى نتائج مستحدثة، كعلوية المتنبي، وحبه لحولة أخت سيف الدولة الحمداني، ويرد القول بنبوءه بأدلة يصعب نكثها، وأثار هذا الكتاب حفيظة

سعيد الأفغاني، فانتقد منهج شاكر في معالجة قضية النبوة^(٦٨)، وكانت استحداثاته فيه قنابل تملخل السائد، يقول واصفا خوفه من الرعب الذي قد يحدثه الكتاب: "نقاذني طوال الليل رعب شديد مخافة ما يقوله الناس فيه إذا هم قرأوه، وأمسييت على غير بينة من أمري، فهذا أول كتاب كتبتة مجترًا على التأليف، وأقدمت إقداما على كتابته على غير مثال سابق مما عهدته الناس في كتابة التراجم^(٦٩)، وقد أوقد كتابه هذا سجالات لم تخمد أوارها إلى الوقت الحاضر، فقد أثار جدلا واسعا بين النقاد والدارسين لمنهجه وأسلوبه وللتناج التي انتهى إليها، وفي ظني أنه لم يسبقه بمثل هذه المساجلات إلا كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي^(٧٠)."

- ٦٨- نشر شاكر مقالاته ومقالات الأفغاني بضميمة كتاب المتنبي، ص ٥٣٣-٥٧٤.
- ٦٩- محمود محمد شاكر، المتنبي، ص ٧٦-٧٧.
- ٧٠- يمكن أن يشار هنا على سبيل التمثيل إلى: مصطفى صادق الرافعي، "المقتطف والمتنبي" في: وحي القلم، ج ٣، ص ٣٦٩-٣٧١، وسعيد الأفغاني، "دين المتنبي"، الرسالة، العدد ١٦١، ٣ أغسطس ١٩٣٦م، ص ١٢٥٥، وحول "نبوة المتنبي"، الرسالة، العدد ١٧٠، أكتوبر ١٩٣٦م، ص ١٦١٩-١٦٢٢، وحول "نبوة المتنبي أيضًا"، الرسالة، العدد ١٧٤، ٢ نوفمبر ١٩٣٦م، ص ١٨٠٢-١٨٠٣، وعبد المتعال الصعيدي، "الفصل في نبوة المتنبي من شعره"، الرسالة، العدد ١٧٤، ٢ نوفمبر ١٩٣٦م، ص ١٨٠٤-١٨٠٥، و ١٧٥، ٩ نوفمبر ١٩٣٦م، ص ١٨٤٨-١٩٤٩، و ١٧٧، ٢٣ نوفمبر ١٩٣٦م، ص ١٩٢٥-١٩٢٧، ومحمد عبد الرحمن شعيب، المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ص ٣١٧-٣١٩، و ٣٢٣-٣٢٩، وعبد الغني الملاح، المتنبي يسترد أباه: دراسة في نسب المتنبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، ص ٤٢-٤٦، و ١٢٥-١٣٠، وحسن محمد الشجاع، صورة المرأة في غزل أبي الطيب، دار العلوم، الرياض، ط ١، ١٩٨٠م، ص ٦٢-٨٠، وعبد الفتاح صالح نافع، لغة الحب في شعر المتنبي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ١٩٨٣م، ص ٤٣٦-٤٣٨، وفتحى رضوان، المتنبي وكتاب لمحمود شاكر في أفكار الكبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م، ص ٢٨٣-٣٠٠، وفتحى رضوان، "نسب المتنبي عند محمود شاكر"، الشعر، العدد ١٠، إبريل ١٩٧٨م، ص ٢٣-٢٩. وهاشم ياغي، من جهود الأستاذ (محمود محمد) شاكر في المتنبي، في لجنة الإعداد، مجموعة بحوث عربية مهداة إلى الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني، بمناسبة بلوغه الثمانين من بعض طلبته وعارفي فضله، القدس، ١٩٨٥م، ص ٢٥٣-٢٥٨، وإبراهيم عوض، المتنبي: دراسة جديدة لحياته وشخصيته، ١٩٨٧م، ص ٢٤٠-٢٦٩، وراشد المبارك، "المتنبي ليس شاعرا: وقفة مع كاتبين"، العربي، العدد ٤٣٠، سبتمبر ١٩٩٤م، ص ٥٨-٦٤، وصبري حافظ، أفق الخطاب النقدي: دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، دار شقيقات، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م، ص ١٥٩، ومحمود الطناحي، المتنبي، في: موسوعة عصر التنوير: أهم مائة كتاب في مائة عام، دار الهلال، ج ١، ص ٣١١-٣٢٤.

تبعه طه حسين بتأليف كتابه مع المتنبي وسلك منهجا أحفظ شاكر الذي رأى فيه سطوا ملفعا على كتابه المتنبي. وفي سنة ١٩٧٧م أصدر شاكر طبعة ثانية من كتابه المتنبي، وقد جاءت هذه الطبعة الجديدة في سفرين كبيرين: اشتمل أولهما على مقدمة ضافية سهاها قصة هذا الكتاب: لمحة من فساد حياتنا الأدبية، ثم كتاب المتنبي القديم الذي ظهر سنة ١٩٦٣م في عدد كامل في المقتطف، أما السفر الآخر فقد حشد فيه مقالاته بيني وبين طه في نقد كتاب طه حسين مع المتنبي التي نشرها في البلاغ سنة ١٩٣٧م، وما دار بينه وبين سعيد الأفغاني حول "نبوة المتنبي" على صفحات الرسالة في سنة ١٩٣٦م، بالإضافة إلى ثلاث تراجم قديمة للمتنبي لما تنشر، كتبها ابن العديم، وابن عساكر، والمقريزي وبالعودة إلى مقالات بيني وبين طه، فقد نشرها لاحقا في ضميمته كتابه المتنبي ٣٩٩-٥٣٠، وكشف فيها عن عوار دراسة طه حسين، وظل ينتفض كتاب مع المتنبي حتى قصف قلمه بموت أستاذه الرافي.

وقد حركت هذه الطبعة الجديدة أقلام عدد من النقاد والدارسين، ومن أبرز هؤلاء: عبد العزيز الدسوقي، فقد كتب في نقدها ومناقشتها خمس مقالات في مجلة الثقافة^(٧١) المصرية، تناول فيها بعض القضايا الفنية والفكرية التي أثارها الكتاب، مركزا على ما كان بين شاكر وطه حسين حول أبي الطيب المتنبي. وقد رد شاكر عليه بثلاث مقالات طوال نشرها في المجلة نفسها تحت عنوان "المتنبي... ليتني ما عرفته"^(٧٢)، وضح في المقالة الأولى طبيعة علاقته بأستاذه طه حسين، وكشف في المقالتين الأخريين عن مفهوم "تذوق الشعر".

سجال شعري:

لم يقف سجال شاكر عند النشر بل تعداه إلى الشعر، مما يؤكد أن فكرة المساجلة قد هيمنت على بنية تفكيره، فقصيدته "القوس العذراء" في الحقيقة رد على أولئك المتطرفين من دعاة التجديد القائم على ازدراء عقول الأسلاف، ومنجزاتهم الثقافية جهلا، دون صبر على دراسة تراثهم ودون حيف أو جور على هذا التراث، نشر محمود شاكر في سنة ١٩٥٢م قصيدة "القوس العذراء" التي قالها من وحي زائفة الشماخ

٧١- انظر: عبد العزيز الدسوقي، "المتنبي بين محمود شاكر وطه حسين"، الثقافة، العدد ٥٢، يناير ١٩٧٨م، ص ٦٥-٧١،

و٥٣ فبراير ١٩٧٨م، ص ٥٥-٦١، "وقضية التذوق بين شاكر وطه حسين"، العدد ٥٤، مارس ١٩٧٨م، ص ٥٠-٥٤،

"والمتنبي بين محمود و شاكر وطه حسين"، العدد ٥٦، مايو ١٩٧٨م، ص ٥٩-٦٤، و٥٧ يونيو ١٩٧٨م، ص ٢٨-٣٠.

٧٢- انظر: محمود محمد شاكر، "المتنبي ليتني ما عرفته"، العدد ٦٠، ديسمبر ١٩٧٨م، ص ٤-١٩، و ٦١، أكتوبر

١٩٧٨م، ص ٤-١٨، و ٦٣، ديسمبر ١٩٧٨م، ص ٤-١٧.

"عفا بطن قو من سليمان فعالز" (٧٣)، وقد بلغ عدد أبياتها تسعة وثمانين ومائتي بيت"، تبدأ المقدمة الثرية التي كتبها شاكر لقصيدته "القوس العذراء"، يوم ظهرت أول مرة على صفحات مجلة الرسالة بعبارة "من محمود شاكر إلى شفيق مري"، لكنه أثار أن يبدأها حينما أعاد نشرها في صورة كتاب بعبارة "إلى صديق لا تبلى مودته". التقى شاكر بصاحب دار المعارف وتطرق الحديث بينهما إلى الكلام عن العمل وتجديده، فإذا الرجلان روحان مؤتلفان، وما إن يتفرقا حتى يظل هذا الحديث عن إتقان الأعمال التي يبارسها الإنسان، فقصيدته "القوس العذراء" النموذج التطبيقي الذي يوضح تصويره لطبيعة الصلة بين الإنسان وعمله.

وقد ابتعثت هذه القصيدة العديد من الردود السجالية، مثل كلمة قصيرة لعادل الغضبان في مجلة الكتاب التي نشرت بها القصيدة تحت عنوان "توطئة"، بين فيها مناسبة القصيدة، وأوماً إلى براعة الشماخ وشاكر، وابتعثت كذلك رد جمال مرسي بدر الذي انصب على وزن القصيدة الذي نظم على مجزوء الرمل، فقد جاء خارجاً على الوزن المألوف بسبب زيادة بعض الكلمات، يقول: "وقفت طويلاً عند ملحمة القوس العذراء للأستاذ الكبير محمود محمد شاكر، مأخوذاً بمحاسن هذه الخريدة الفريدة، ممتعا الروح بها حوت من خيال رائع ونسج متين، غير أن لاحظت في قليل من أبيات مطلع القصيدة العصماء خلافاً أفقد نغمها انسجامه" (٧٤)، وهذه الأبيات القليلة التي لاحظتها هي:

كيف يستودعها الشمس عامين... تراه ويراه.

كيف سواها... وسواها... وسواها فقامت... فقضاها (زيادة تفعيلة).

أي عين لمحت (سرهما) (٧٥) المضممر بكل كيف رآها (زيادة تفعيلة).

قال بالتبر وبالفضة... بالخز وما شئت سواها (٧٦) (زيادة تفعيلة).

وقد رد شاكر على محمد سعيد المسلم بعد نحو شهرين "لست أنكر ما قلت، ولا ما قال به قبل صديقي الأستاذ جمال مرسي بدر، فالذي جرى عليه العمل كما يقال هو قلم" (٧٧)، وكذلك بعثت القصيدة العديد من الردود، منها رد زكي نجيب محمود، "القوس العذراء"، الكتاب العربي، العدد ١٥،

٧٣- انظر الشماخ بن ضرار الذبياني، ديوان الشماخ، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٧٣-٢٠١.

٧٤- جمال مرسي بدر، "القوس العذراء"، الكتاب، المجلد ١١، مارس ١٩٥٢م، ص ٣٨.

٧٥- لم ينقلها الكاتب هكذا كما وردت في الأصل، إنما نقلها خطأ (سرهما)، مما يجعل البيت مختلفاً.

٧٦- محمود محمد شاكر، "القوس العذراء"، ص ٣١-٣٣.

٧٧- محمود محمد شاكر، "حول طبقات فحول الشعراء"، الكتاب، المجلد ١٢، أبريل ١٩٥٣م، ص ٥٥٠.

١٩٦٥م، ١١-١٥، وإحسان عباس، "القوس العذراء"، ومحمد مصطفى هدارة، القوس العذراء: رؤية في الإبداع الفني دراسات عربية وإسلامية، ٣-١٥، ٤٥٧-٤٧٨، ومحمد أبو موسى، القوس العذراء وقراءة التراث، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، ووهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٠٧، ١٩٩٦م، ٣٣٦، وسعد أبو الرضا، القوس العذراء وعشق التراث، الأدب الإسلامي، العدد ١٦، ١٤١٨هـ، ١٠٤-١١٧، وعبد زائد، القوس العذراء: الصوت والصدى، الأدب الإسلامي، العدد ١٦، ١٤١٨هـ، ١١٨-١٢٧.

ومع أن شاكر أحس أن التعبير الشعري لا يقدر على أداء رسالة الدفاع عن تراث العربية والإسلام، والكشف عن ركائزه النفسية، وتصحيح الحياة الأدبية المعاصرة، وهي الرسالة التي رأى أنه مكلف بها وحده دون سواه، إلا أنه كتب العديد من القصائد الشعرية التي نالت حظوة عند النقاد، وحملت في ثناياها صورة سجالية، مثل قصيدة "يوم تماطل الشجون" التي تمتزج فيها المعاني القومية والإسلامية، فهو يدعو للتضحية في سبيل الوطن ونبذ العداوة ومقاومة المستعمرين، ويخاطب أمم الإسلام مذكرا إياها بمجدها السالف في محاولة تبعث هذا الماضي العريق مقارنة بما آلت إليه الأمة اليوم من ضعف وضياع، وقد جاءت هذه القصيدة ردا على تدخل الإنجليز ولا سيما للورد لويد سنة ١٩٢٦م في إجبار الملك على إعادة الدستور، وكذلك إجراء الانتخابات النيابية في مصر، وهي قضية شغلت الجماهير عند الجهاد في سبيل الجلاء. يقول:

جعلوا الدستور ترسا دونهم أفهدم هو في علم ودين
برىء الدستور من ظنهم ليس في الحق محابة البنين

وظهر السجال أيضًا في قصيدة "الناسخون الماسخون" و "كلمة مودع" وهما أقرب إلى النظم منه إلى الشعر، وقد كتبها من وحي عمله في تحقيق التراث وتصحيحه في "دار المطبعة السلفية" مع أستاذه محب الدين الخطيب، وكتاهما موجهة إليه على شكل رسالة ردا على طلب الخطيب منه البحث عن شعر الربيع في كتب الأدب واللغة، وتصحيح ما بقي من أخطائها، يقول شاكر:

فلو أن ذا القرنين طالت حياته وأبصر ما قد جمع ابن هشام
وأبصر أقوال الربيع وشعره سوادا مجنا في وحي ظلام

ومعاناة سجالاته الشعرية تكشف عن وهن فني، إذ جاءت أقرب إلى الخطيئة والوضوح

وتفتقر إلى عنصر التصوير.

طرائق بث الخطاب السجالي في أدب محمود محمد شاكر:

الاتصال والانفصال:

عمل شاكر في خطابه السجالي بمقولة "إذا أردت أن تعرف نفسك فيجب أن تنفصل عنها، وإذا أردت أن تعرف الآخرين فيجب أن تتصل بهم" (٧٨)، فقد آمن أن من أبجديات السجال أن يقوم بفتح قنوات اتصال بمن تساجله حتى تعرف الوسيلة المثلى لدخوله. هذا الاتصال جاء بشكل شخصي مباشر أو عن طريق المراسلة، حدث ذلك مع طه حسين سنة ١٩٢٤م عندما بدأ يقرأ له ما كان ينشره في صحيفته السياسية من حديث الأربعاء، فتأقت نفسه إليه كما يقول، وسعى إليه سعياً وعرفه عن قرب، مع أنه كان صغيراً، وطه حسين في الخامسة والثلاثين، مع هذا التفاوت في السن، اطمأن له طه حسين وقربه إليه، يقول: "فجراًة الشباب كنت أخالفه أحياناً كثيرة فيما يكتب، وبجهل الشباب أيضاً أحاوره وأجادله بقليل علمي" (٧٩). ويظهر أحراره على الاتصال به وبمرور الزمن بدأ يصغي له في محاضراته في الجامعة، التي عرفت بكتاب في الشعر الجاهلي، الذي شكك فيه بالشعر الجاهلي، مما جعل الفجوة تزيد بينه وبين أستاذه يوماً فيوم، كان ذلك لسببين قراءته للشعر الجاهلي على يد المرصفي وغيره، وقراءته لمقالة مارجليوث نشأة الشعر العربي سنة ١٩٢٥م، التي يشكك فيها في الشعر الجاهلي "مرجحاً أنه موضوع بعد نزول القرآن، صنعه الرواة المسلمون، ونسبوه إلى الجاهلية" (٨٠). ومن جانب آخر تجاهل الخصم إلى درجة إلغائه. أما انفصاله عن نفسه فقد بدأ في الكثير من المواقف التي كان يتراجع فيها من حين إلى آخر، حتى يضمن لنفسه صحة الاعتقاد وضمان الاستمرارية والتفوق. يقول:

تكرار النشر:

إمعانا في تفوق شاكر في سجالاته نراه حريصاً كل الحرص على تكرار نشر كل مساجلاته، فقد نشر كتابه المتنبي مثلاً على شكل مقالات أولاً، ثم على شكل كتاب، تم هذا النشر في الحالتين غير مرة.

التلمذة:

غداً بيت محمود شاكر مزاراً لطالب العلم والدارسين والمثقفين، من كل أرجاء العالم العربي والإسلامي، وكلهم تلامذة له، كان مجلسه على الدوام عامراً بالناس، ورواده من جميع الطبقات والفئات،

٧٨- أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٥.

٧٩- محمود محمد شاكر، المتنبي ليتني ما عرفته، ص ١، ٨.

٨٠- ديفيد صوميل مارجليوث، نشأة الشعر العربي، نقلاً عن عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين، ص ٧٨-١٢٩.

فتجد عنده الأديب، والقاضي، والأستاذ الجامعي، والطالب، والطبيب، والمهندس، وما إلى ذلك، كان بيته مفتوحا لتلاميذه وزواره من الصباح الباكر حتى ساعات متأخرة من الليل.

ولعل من أبرز هؤلاء الذين كانوا يترددون إلى بيته ومكتبته ويحضرون مجالسه وينهلون من غزير علمه على سبيل التمثيل لا الحصر: إحسان عباس، وناصر الدين الأسد، وعبد الله التل^(٨١)، وأحمد راتب النفاخ، وشاكر الفحام، وأحمد حسن الباقوري، ورجال الثورة المصرية، ما عدا جمال عبد الناصر^(٨٢)، وأبو الفضل إبراهيم، وفؤاد السيد، ورشاد عبد المطلب، ومازن المبارك، وعبد الرحمن ياغي، وهاشم ياغي^(٨٣)، وغير هؤلاء وهم من الكثرة الكثيرة التي تتأبى على الرصد، ولم يكن استيعاب مثل هذه الأعداد من شاكر مجانيا، إنما كان بدافع بث خطابه وإيصاله إلى فضاءات قد تضيق عنها وسائل النشر الأخرى.

وقد كان تلامذة محمود شاكر وأصدقائه أوفياء له، يهتبلون كل فرصة للاعتراف بفضلته والإشادة به، وتقديم خالص الشكر له، يقول إحسان عباس في سيرته الذاتية: "وكان لقائي به يقصد شاكرًا فاتحة عهد جديد في حياتي العلمية، كنت أقرأ له شعرا ونثرا في مجلة الرسالة، ولكن اقترابي منه فتح لي عالما جديدا من المعرفة، أصبحت أجده لديه إجابات متقنة عن أسئلة كثيرة تدور في رأسي، وغرفت من علمه الغزير أضعاف ما قرأته وما سمعته قبل لقائه، وقد كان بيته "مجمعا" علميا لكثيرين من طلاب المعرفة، من مصريين ووافدين^(٨٤)."

ويقول ناصر الدين الأسد في مقدمة كتابه مصادر الشعر الجاهلي: "وأما أخي الصديق الأستاذ محمود محمد شاكر، فإن فضلته لا يقتصر على هذا البحث وحده، فلطالما اغترفت من علمه، وأفدت من مكتبته، وانتفعت بنصحه وتوجيهه، وما أكثر ما كان ينفق من وقت يناقش فيه وجوه الرأي، ويصبرني بما لم أكن لأصل إليه لولا غزير علمه وسديد نصحه"^(٨٥).

ويقول محمد يوسف نجم في مقدمة تحقيقه لـ: ديوان عبد الله بن قيس الرقيات: "أما أخي وأستاذي محمود شاكر، فإنني أطمع في أن أفيه حقه من الشكر والتقدير... في مقدمة موجزة كهذه، ولكن

٨١- إحسان عباس، غربة الراعي: سيرة ذاتية، دار الشروق، عمان، ١٩٩٦م، ص ٢١١-٢١٢.

٨٢- من مقابلة مع إحسان عباس.

٨٣- انظر: عبد الرحمن ياغي، ناصر الدين الأسد، يدخل محراب النص التراثي، صحيفة الرأي الأردنية، ٩٣٧٥، ٣ أيار، ١٩٩٦م، ص ١٢.

٨٤- إحسان عباس، غربة الراعي، ص ٢١١-٢١٢.

٨٥- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت، ٨، ١٩٨٨م، ص ١٠.

ليسمح لي أن أبره، وقد أدبني بهذا الأدب، فأقول أن الفضل الأول في توجيهي إلى دراسة تراثنا القديم والتفرغ له، بعد انصرافي إلى دراسة الأدب الحديث يعود إليه، وقد كانت دروسه ومجالسه وأماله المدرسة الأولى التي نهلت من فيض علمها، فشقت غرستي وطلعت، كما كان لي من أخوته الصادقة، ووده الصافي وحده الدائم، خير مشجع وأفضل حافز على المضي في هذا السبيل الشائك، والضرب في هذه المهمة الغائلة، وفضله هناك لا يدانيه سوى فضله هنا في هذا الديوان، فقد تعهده طفلاً، وتفضل بقراءته والتعليق عليه وتصويبه" (٨٦).

السمات الفنية لمساجلات شاكر:

تبين معاينة مساجلات شاكر عن سمات فنية تفرد بها نصه السجالي أسهمت في إنفاذ غايته التي هي لجم الخصم وإسكات صوته وإفحامه . كان من أهمها:
اللغة:

وصفت خطابات شاكر السجالية بكونها محض لغة^(٨٧)، فهو متمكن منها متطلع فيها ومدرك لخطر الألفاظ وفتكها بالفكر، لذا حفلت سجالاته بلغة مستنيرة مستنيرة عن طريق التركيز فيها على كل ما من شأنه أن يكون مصدر وخز واستفزاز وتصفية، وقد يحدث ذلك باللجوء إلى وسائل وأساليب خاصة تميزت بها لغته منها الإغراب، وهو ليس مقصوداً بذاته، إنما هو نتاج ثقافته، لكنه يحتاج إلى معنى له لفظ في اللغة فيعمد إليه^(٨٨)، ومن أمثلة ذلك "أتأرى النظر" أي أحده وأتبعه إياه، ودرست صواه، جمع صوه وهو حجر يكون علامة في الطريق أو علم من حجارة منصوبة بها، يهاهي بهم راعي العلف^(٨٩) والمأهأة دعاء الإبل إلى العلف، ومن ذلك قوله: "ياخذ بأكظامي" أي بمخارج النفس، ومنه كذلك "ورارا" وهو المخ الذائب كمخ العظام البوالي. يهدف من خلال هذا الأسلوب إلى إظهار علمه ومعرفته كونه في مقام جدل ومناظرة يطلب بها أن يغلب خصمه، وهو نوع من الإيحاء النفسي لإثبات الذات أمام الخصم^(٩٠)، ويلجأ أحياناً إلى الألفاظ المألوفة بل المبتذلة إن كانت تسهم في تلك الوظيفة للخصم، كقوله في لويس عوض أنه "جالب للفرشة كما تقول العامة في مصر"، "يدخل مجلس القضاء ... أهبة وفخفة"^(٩١).

٨٦- عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ص ٧.

٨٧- عايدة الشريف، محمود محمد شاكر، ص ١٢٤.

٨٨- محمود محمد شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، ص ٢٥٣.

٨٩- محمود محمد شاكر، جبهة المقالات، ص ١١٥، ١٥٣، ١٧٨، ٤١١.

٩٠- إبراهيم أنابني، مقالات حارس التراث، محمود محمد شاكر، ص ١٨٤.

٩١- محمود محمد شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، ص ٢٣١.

اللغة التصويرية:

حرص شاعر في سجلاته على لغة تصويرية مهمتها تحويل المتلقي من قارئ إلى مشاهد إدراكا منه لتفوق المرئي على المقروء في التأثير والفاعلية، جاء ذلك عن طريق تكثيف تصاويره، بسبل شتى، فقد يورد التشبيه بعدة أوجه، كوصفه لأحدهم أنه "كالربيع جمال، وشباب ورقة وحنان وفرح لا ينتهي" (٩٢)، وقد يأتي التكثيف بصورة مركبة محكمة النسيج، لا نستطيع حرم أحد تفاصيلها، كقوله: "تأتي النائبة من وراء الغيب مسرعة متوهجة تتوقد، ثم تنغمس في الدم، فتسمع الحياة نشيشها فيه" (٩٣)، وقد تأتي الصورة كلية، بأن يأتي بصور متعاضدة كأنما تبتثق اللاحقة من السابقة، فتشكل في مجموعها صورة واحدة كقوله: "وصديقي بشر قارورة عطر نشوان من نفحات روحه، قارورة عربية معرودة، تحتال بطبيها نباهة من الخفة والطرب" (٩٤)، ففي هذه القطعة صور شتى استقاها من صورة صاحبة العطر، وقد يكثر من إيراد الصور الجزئية كمقاتلي ذات النطاقين (٩٥)، ومن تكثيفه أنه أوتي القدرة على قول اللفظ جاعلا إياه صورة مليئة بالتفاصيل، مثل استخدامه المتكرر للفظه تقاذف، كقوله: "ولتقاذف ما بين الزمانين" (٩٦).

الموسيقى التصويرية:

الموسيقى التصويرية هي تلك الموسيقى التي تصاحب الصورة بحيث يتعاضدان في انسجام وتساوق وتناغم لدعم الفكرة أو المعنى المراد، مما يضاعف التأثير على المتلقي ومن ذلك قوله في وصف خطورة ما يدسه لويس عوض بين سطور كتاباته:

"وإذا أسود سالخ، (وهو أقتل ما يكون من الحيات)، يمشي بين الألفاظ فيسمع جلدته خفيف، ولأنبايه جرس، فما زلت أنحدر مع الأسطر والصوت يعلو، يخالطه فحيح، ثم ضباح، ثم صفيير، ثم نباح، (وكلها من أصوات الأفاعي) فألقيت المقالة مقننا لهذا الصوت البغيض، الذي انبعث ببداي، وغتت بيد بشاعته حلقوم صحكى!! (غت حلقه، خنقه وعصره عصرا شديدا).

ففي تصاعد متواز للصورة والموسيقى أخذت النبوة ترتفع رويدا رويدا حتى جعل المتلقي يسلم

٩٢- محمود محمد شاكر، جبهة المقالات، ص ٢٣٥.

٩٣- المصدر السابق، ص ٨٦٦.

٩٤- المصدر السابق، ص ٩٠.

٩٥- محمود محمد شاكر، جبهة المقالات، ص ٤٠.

٩٦- محمود محمد شاكر، نمط صعب، ص ٣٤.

بما تبناه. ومن أجل التمكين لفعل التأثير في المتلقي أردف التصوير بالموسيقى التي تفوح دلالة بالمعنى، فجعلت من جرس المفردات ورنينها داعماً للإبلاغ المعنى، (بخالطه فحيح، ثم صباح، ثم صفير، ثم نباح).
الأسئلة الاستفزازية:

شكلت ثقافة الأسئلة، والأسئلة الاستفزازية خاصة ملمحا وسم خطاب شاكر السجالي، حيث إن لجوءه إليها لم يكن عفويا، إنما لإدراكه العميق لدورها في استفزاز الخصم مما يؤدي إلى انفعاله وبالتالي فقدان توازنه وتضعف سيطرته على تماسكه، مما يسهل تصفيته. يقول شاكر في مقالة عنونت بسؤال استفزازي هو "لمن أكتب؟":

"لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب؟ ولم أكتب؟ ولكني أحس الآن من سر قلبي أنني إنما كنت أكتب، ولا أزال أكتب لإنسان من الناس لا أدري من هو، ولا أين هو: أهو حي فيسمعي، أم جنين لم يولد بعد سوف يقدر له أن يقرأني؟ ولست على يقين من شيء إلا أن الذي أدعو إليه سوف يتحقق يوما على يد من يحسن توجيه هذه الأمم العربية والإسلامية إلى الغاية التي خلقت لها، وهي إنشاء حضارة جديدة في هذا العالم، تطمس هذه الحضارة التي فارت بالأحقاد والأضغان والمظالم، ولم يتورع أهلها عن الجور والبغي في كل شيء، حتى في أنبل الأشياء، وهو العلم" (٩٧).

خاتمة:

كشفت الدراسة عن مفهوم السجال ونظائره، وتبين أن حدوده تكمن في إجماع الخصم وتصفيته معنويا، وقد توافرت لمحمود محمد شاكر بنية مؤسسة لخطابه السجالي، دعمت بظروف ثقافية واجتماعية وسياسية وغيرها، وكشفت الدراسة عن أن الخطاب السجالي في أدب محمود محمد شاكر أخذ تشكيلات عدة، أهمها السجال المقالي والمقدماتي والكتابي والشعري.

وقد اتبع شاكر وسائل واستراتيجيات خاصة في بث خطابه السجالي وتلقيه، فكانت في الاتصال والانفصال وتكرار النشر والتلمذة، أما الاستراتيجيات العلمية لتلقي خطابه فاتسمت بالوضوح والدقة والاتزان الانفعالي.

وأخيرا توصلت الدراسة إلى أن انتقاء شاكر لمفرداته اللغوية، أسس لبنية سجالية خاصة، تقارع الخصم بمتانة اللغة، إضافة إلى هيمنة لغة تصويرية تطفح بالحركة والحيوية.

Polemical Discourse in the Works of Ma m d Mu ammad Sh kir

This paper deals with polemical discourse in the literary works of Mahm d Mu ammad Sh kir, This is considered one of the most complex literary genres. Its difficultness comes from its being spontaneous with no prior plan. Sh kir employed all means and mechanisms for effective communication and delivering the message to his audience. Through his polemical essays, written introductions and poems, he exhausted all available means to disseminate his polemical views. He made brilliant use of linguistic techniques and all other means available to him to put across his message in defending the cause of Arabic language, Islamic creed and culture.
